"الصّهْيُونِيّة غَير اليهوديّة"

قراءة: نبيل علي صالح[1]

ملخّص

لا شـكَّ بوجود حالةِ جهلٍ عامّةٍ بحقيقة الظُّروف التاريخية التي مهَّدَت لسُطوع نجمِ الحركة الصهيونية منذ حوالي ثلاثةِ قرون، وذلك قبلَ أن يتمَّ تمكينُها وترسـيخُها كحركةٍ سياسـيّةٍ مَدعومةٍ غربيًّا من قبل مُؤسِّسها (ثيودور هرتزل - Theodor Herzl). وهذا في فَهمِ طبيعـةِ هذه الحركة وما ترتَّبَ عليها من إلحاقِ أضرارٍ بالقضية الفلسـطينية، أخلَّتْ بمَسَعاها لإثبات حقِّها والدِّفاع عنه.

وهذا يتطلَّبُ إعادةَ تسليطِ الضَّوءِ التّاريخيِّ على أصل المَشروع الصهيوني، ويَقتضي العـودةَ تاريخيًّا إلى الوَراء للبحث عن بدايات نشـوئِه، ومن ثَمَّ احتضانه من قِبل الغرب فكريًّا وسياسـيًّا، بـل واعتناق التصوُّرات والأفكار الصهيونية (التوراتية) نفسـها، خاصّةً تَلك المُتعلِّقة بأنَّ اليهودَ مُتحضِّرونَ ومُتقدِّمونَ، وعِرقُهم نقيٌّ وصافٍ، ولا بدَّ من إعادتهم لوطنهم الأمِّ فلسطين، لإقامة دولتهم وكيانِهم السِّياسيِّ اليهوديّ فيهًا..!!.

ولولا هذا الدَّعمُ والتأييدُ الغربيُّ الإمبرياليُّ الكامل للصهيونية، في أفكارها ومُخطَّطاتها ومشـاريعها، المُسـتمَدّةِ من تصوُّرات العهد القديم، ما كانَت لتنجحَ خططُهم في إقامة دولةٍ على أرض فلسطينَ المحتلة.

الكلمات المفتاحية: الصّهيونية، اليهودية، فلسطين، الثَّقافة الغربية، التَّوراة.

---

1 - كاتب وباحث سوري.

مقدمة

يتألَّـفُ هذا الكتابُ من ثمانية فصول، تبحثُ فيهـا الكاتبةُ عن أصل معنى كلٍّ من الصهيونية واليهوديّة، وصولاً لضرورة التَّفريق المنهجيِّ والعمليِّ بين المَفهومَينِ والمُصطلحَينِ على الصَّعيد الدِّينيِّ والسِّياسيّ، حيثُ تتوسَّـعُ في الحديث عن نشأةِ الصّهيونية، كاستراتيجيّةٍ ومنهجيَّةِ عملٍ سياسـيّةٍ، تمَّ اعتمادُها من قِبَل رموز الدِّين اليهوديِّ في أوروبا وأمريكا، مع بيانٍ للعلاقة بين هذه الظّاهرة والمُشـكِلة أو القضيّة الفلسـطينيّةِ، وتداعياتِها اللاحقةِ، التي أدَّتْ إلى تَهجير شعبٍ من أرضِه، وإحلال شعبٍ آخَرَ مكانَه.

بطاقةُ الكتاب

عنوان الكتاب: «الصّهيونية غير اليهوديّة - جُذورها في التّاريخ الغربي».

مُؤلِّف الكتاب: ريجينا الشّريف.

دار النشر: المجلسُ الوطني للثّقافة والفنون والآداب في الكويت - سلسلة عالم المعرفة، رقم الكتاب: ٩٦.

سنة النشر: ١٩٨٥م.

عدد الصفحات: ١٩٩ صفحة.

اللغة الأصلية للكتاب: اللغة العربية. (صدرت للكتاب عدة ترجمات).

الفَصلُ الأوّل: المقدمة

تمُيِّـزُ الكاتبـةُ في بداية هذا الفصل بين مفهومَـي الصهيونية واليهوديّـة، وتَنظرُ إلى مصطلح الصّهيونيـة كظاهـرةٍ فريدةٍ في التاريخ، حيـثُ يَرجع تاريخُ ظهـور فكرةِ «الصهيونيّة السِّياسـية

اليهوديّة» -كأداة أيديولوجيّة لكسبِ التّأييد الدّولي من أجلِ إقامةِ دولة يهودية في فلسطين- إلى عام ١٨٩٦م الذي نشرَ فيه (ثيودور هرتزل) كتابَه حول «الدَّولة اليهوديّة»؛ ولم تُصبحِ الصهيونيّةُ السياسيةُ واقعًا قويًّا حاضرًا إلا «بعد أنْ تمَّ التّوافُقُ في المؤتمر الصهيوني الأول، الذي عقدَه (هرتزل) عام ١٨٩٧م، على برنامج «بازل» الذي كان يَدعو إلى إقامة وطنٍ قوميٍّ آمنٍ ومُعترَفٍ به قانونيًّا لليهود في فلسطين»[١].

ومنذ الإرهاصاتِ الأولى لكتابِها هذا تُؤكِّدُ الكاتبةُ على أنَّ «الصهيونية غير اليهوديّة عنصرٌ أساسٌ في التّاريخ الدِّيني والاجتماعي والسِّياسي الغربي، وهي تُشكِّلُ خطًّا موازيًا لتاريخ الصهيونية اليهوديّة، وليسَ خطًّا تابعًا له. وتُتابِعُ الكاتبةُ مُؤكِّدةً أنَّ تطوُّر الصهيونية غيرِ اليهوديّة بدأ منذُ عهد ما بعدَ حركة الإصلاحِ الدِّينيِّ في أوروبا، إلى أنْ تغلغلَت في الثَّقافة الغربية، لِتَظهرَ حقيقةُ الصّهيونية -كما تمُارِسُها دولةُ إسرائيل الصّهيونية- كأحدِ وجوهِ الاستعمار الغربيِّ. وكان هناك توافُقٌ بينَ الصّهيونية كعَقيدة قوميّة، والسِّياسةِ الاستعمارية السّائدة»[٢].

الفَصلُ الثّاني: نشأةُ الصهيونية غير اليهوديّة

تُبيِّنُ الكاتبةُ أنَّ الصّهيونيةَ لم تَظهر على مسرح أوروبا السِّياسيِّ كأيديولوجية سياسية شاملة وحركة سياسية مُنظَّمة إلا في أواخر القرن التاسعَ عشرَ، ولكنَّها «كفكرة» سبقَت الصهيونيةَ اليهوديّة، إذ يَعود تاريخُها إلى ما قبلَ ذلك. إذ لم تَنشأ الفكرةُ الصهيونية -بما في ذلك أسطورتُها الأساسية- في هذه الفترة، ولكنَّها تَعود في تاريخها إلى ثلاثمئة عامٍ قبل المُؤتمر الصهيونيِّ الأوَّلِ الذي عُقد في «بازل» عام ١٨٩٧م.

وتُحدِّدُ الكاتبةُ معنى كلمة "أسطورة" من خلال التَّعريف الذي حدَّدَه (تالكوت بارسونز - Talcott Parsons)[٣]، بأنَّها نمطٌ نموذجيٌّ لاعتقادات سياسية وتاريخية واجتماعية مُتداخِلةٍ ومُتشابِكة فيما بينَها، تتحوَّلُ إلى مبادئ أيديولوجية يُؤمنُ بها المجتمعُ وتَنتقِلُ عبرَ الأجيال. والمثالُ هنا هي هذه الأساطيرُ المُؤسِّسة للفِكرة اليهوديّة، وهي مجموعةٌ مُترابطةٌ من عناصر

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص٨.

٢ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١١ وما بعدها.

٣ - عالم اجتماع أمريكي (١٩٠٢-١٩٧٢م).

تاريخية ووطنية ودينية وتشريعية، تَعود في أصلها وحقيقتها إلى ثلاثة عناصرَ تَدور حولَها طبيعةُ الشَّخصيّة اليهوديّة ذاتِها، وهي: «التَّوراة»، «الأرض المُقدَّسة» (أرض الميعاد)، ومن ثَمَّ مقولة "شعبُ الله المختار». أي أنَّ الأساطيرَ الصهيونية، التي بدأ غرسُها في هذه المَرحلة المبكِّرةِ في البيئة غير اليهوديّة، كانَت مُتوافِقةً مع تلك التي أصبحَت تُشكِّلُ في النِّهاية المَنطِقَ الرُّوحيَّ الباطنيَّ للصهيونية اليهوديّة السياسية، وهي أساطيرُ «الشَّعب المختار» و«الميثاق»، و«عودة المُشيَّح المُنتظَر»[1].

وتَغوصُ الكاتبةُ في التاريخ الغربيِّ باحثةً أكثرَ عن أساس وجود اليهود فيه، فتُؤكِّد على أنَّ أوروبا، قبل عهد الإصلاح الدِّينيِّ، لم تكنْ تَعتبر اليهودَ «الشَّعبَ المختار»، الذي قُدِّرَ له أن يعودَ للأرض المَقدَّسة، وإذا كان اليَهوديُّ مختارًا لأمرٍ ما فإنَّه اللَّعنةُ. وكان اليهود يُعتَبرونَ مارقينَ، ويُوصَمونَ بأنَّهم قَتَلةُ المَسيح. ولم تكنْ هناك مِن ذرّةِ حُبٍّ عاطفيٍّ للمَجد القديم للجنس العبريِّ[2]، ولكنْ بعدَ تفجُّر «حركة الإصلاح الدِّيني في أوروبا» تغيرَّتِ الأمورُ، فقد كانَت المبادئ البروتستانتية التي وضعَتْها «حركة الإصلاح الدِّينيِّ» في القرن السادسَ عشرَ مُغايرةً تمامًا للمبادئ الكاثوليكية السّابقة، وتُوصَفُ هذه الحركةُ بأنَّها بعثٌ «عبريّ» أو «يهوديّ» تولَّدَت عنه وجهةُ نظرٍ جديدة عن الماضي والحاضر اليهوديِّ، وعن مستقبله بشكلٍ خاصٍّ..

وتشيرُ الكاتبةُ هنا إلى أنَّ تلك التَّغييرات اللاهوتيةَ، التي جاءت بها حركةُ الإصلاح، هي التي روَّجَتْ لفكرة أنَّ اليهودَ أمةٌ مُفضَّلة، وأكَّدَت على عودتِهم إلى أرض فلسطين. وكلُّه كان يأتي تحتَ شعار العَودة إلى الكتاب المُقدَّس، ليُصبِحَ العَهدُ القديم مَرجعًا أعلى للسُّلوك والاعتقاد، ومَصدرًا للمعلومات التاريخية العامة، وكانَت هذه هي المرحلة التي بدأتْ فيها عمليةُ التَّزوير التّاريخي. وكان لها أهمِّيةٌ كُبرى في تطوُّر الصهيونية المسيحية في عهد ما بعد الإصلاح الدِّينيّ، حيث تسرَّبَتِ الرُّوحُ العِبريّةُ إذا صحَّ التَّعبيرُ لكلِّ شيءٍ في الغرب، وعلى رأسها فكرة عَودة المُشيَّح المُنتظَر الذي سيُقيم مملكةَ الله في الأرض، ثُمَّ إلى الفنون والآداب، وكلِّ ما يتعلَّق برموز ومواقع الحضارة الغربية، أي أنَّها باتَت من معالم الثَّقافة اليَومية، وجزءًا من طقوس الكنيسة، وهذا ما رسَّخَتْه أكثرَ «الحركة البيوريتانية» التي تفجَّرَت إبانَ القرن السابعَ عشرَ في إنجلترا، وكانَت أكثرَ

---

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١٩-٢٠.

٢ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص٢٢.

أشـكال البروتستانتية تعصُّبًا وتطرُّفًا خاصّة في مَوروثات ومُستجدّات المسألةِ اليهوديّة، فجَلبت لإنجلترا، اجتماعيًّا وفكريًّا، الغزوَ «العِبريَّ» الذي كان قد اجتاح القارّةَ الأوروبيّةَ بأكملها.

وهكـذا أخذَت فكرةُ «الشَّـعب اليهودي المختار» تلعَـبُ دورًا مُتميِّـزًا في الفكر الإنجليزي البيوريتـاني والنِّظام القائم. كـما أصبحَت فكرةُ «ضرورة إعادة فلسـطين لأصحابها العبرانيِّين» شـائعةً في إنجلترا منذ أربعينات القرن السّـابعَ عشرَ، لتَنتشر وتتعزَّزَ هذه الفكرةُ إلى كلِّ الغرب الأوروبي والأمريكي[١].

الفَصلُ الثّالث: الفكرةُ الصّهيونية في الثَّقافة الأوروبية

تسـتمرُّ الكاتبةُ في التَّنقيـب والبحث التَّاريخيِّ عن أصلِ خَلْقِ وابتـداع الفكرةِ الصَّهيونيَّة في الفكر والثَّقافة الغربيَّـة (تحديدًا الأوروبية)، وتَعميقها في الذِّهنيـة الفردية والمجتمعيَّة الغربية، حيث تُشـير الكاتبةُ إلى تغلغُل الأفكار الصهيونية في كافة مواقع ومجالات حركة الثَّقافة الغربيةِ على مستوى الأدب والمسرح والفلسفة. ووصلَت حدودُ هذا التَّغلغُل الأدبيِّ (الشِّعري بالذات) إلى الطُّقـوس الدِّينية الألمانية خـلال القرن الثامنَ عـشرَ. حيثُ كانَت فكرةُ إعـادة اليَهود إلى فلسـطين هي الفكرة المُهيمنة في مُعظَم تَرانيم حركة التَّقوية البروتستانتية الجديدة. إذ إنَّ معظَمَ هـذه التَّرانيم تُصوِّرُ التّاريخَ اليهـوديَّ في أبهى مراحلِه، بل إنَّ النـصَّ الألمانيَّ كان يتضمَّنُ في أحيانٍ كثيرة كلمات عبريّةً[٢].

كماً يَلمسُ المرءُ -تُتابعُ الكاتبةُ- في كتابات فلاسفة القرن السابعَ عشرَ والثامنَ عشرَ البارزينَ، مثل: (جون لوك - John Locke) و(أسـحق نيوتن - Isaac Newton) و(جوهان جوتفريد هردر - Johann Gottfried von Herder)، التي كانت مناصرةً بشـكل عـامٍّ لقضية عودة اليهود إلى فلسطين، تَعاطُفًا واسعًا مع الفِكرة، فقد جاءَ في "تعليقٍ على رسائل القدِّيسِ بولسر" كتبَه (جون لوك) واضعُ النَّظرية السِّياسـية اللِّيبرالية "أنَّ اللهَ قادرٌ على جمعِ اليهودِ في كيانٍ واحد، وجَعْلِهم في وَضْعٍ مُزدهِرٍ في وطنِهم". كما شَهدَ عصرُ المَذهب العقليِّ كذلك ظهورَ نوعٍ جديدٍ من الأدب المُتعلِّق بفلسطين، لا كبلدٍ للتَّوراةِ، بل كوَحدة جغرافية يَنبغي استكشافُها علميًّا. ولقد كانَ الرَّحالةُ

---

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ٢٣-٤٠.

٢ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص٥٥.

العلماءُ يَقومونَ برَحلاتِهم للشَّرق سَعيًا وراء المَعرفة والمَعلومات لا مِن أجل السِّياحة الدِّينية[١].

وتستمرُّ الكاتبةُ في استعراض المذاهب الفكريّة والفلسفيّة التي عمَّقَتِ المَبادئَ اليهوديّةَ الواردةَ في العهدِ القديم في واقعِ الفِكرِ والثَّقافة الغربية، كما تَتناول أسماءَ كثيرٍ من الشَّخصيات والنُّخَبِ الثَّقافية والسِّياسيّة الغربيّة، التي أسهَمَت في تأصيل تلكَ المبادئ في الفِكر والسُّلوك السياسيِّ الغربيِّ على مُدّةَ طويلةً امتدَّتْ لعدة قرونٍ قبلَ صدور قرار الاستيطان في فلسطين.

فمثلاً، في الوقت الذي كانَت فيه حركةُ «التَّبشير الإنجيلي» تَجتاحُ إنجلترا في بداية القرن التاسعَ عشرَ كانَت أوروبا غارقةً في الرُّومانطيقيّة، حيثُ حلَّ تَمجيدُ الغرائزِ والعَواطفِ محلَّ حركةِ التَّنوير العقليِّ وتَبجيلِ الفِكرِ والعَقل. وقد ابتهجَ كثيرونَ ممَّن كانَت تُضايِقُهُم هجماتُ الرَّبّانيِّينَ والمُتشكِّكينَ بفلسفة تَعترفُ بفَضائلِ الإيمان، وتُمجِّدُ عالَمَ الرُّوح.

وقد بسطَتِ المثاليّةُ الرُّومانطيقيّةُ نفوذَها على كثيرٍ من الاتِّجاهات، وكانَت تتضمَّنُ احترامًا عَميقًا للطَّبيعة والتَّقاليد والدِّين، بالإضافة إلى الفِكرةِ الرُّومانطيقية عن الشَّعب، وهي فكرةٌ مُبهَمةٌ في اللُّغة الإنجليزية، ويَحتاجُ التَّعبيرُ عنها إلى ثلاثِ كلمات هي: الشَّعب والأمّة والجنس، وحلَّت فكرةُ «الشَّعب» الأكثرُ مُرونةً، وما يَقترنُ بها من مبادئ رومانطيقية، محلَّ فكرة «المُواطَنَة» الشَّرعية والعَقلية التي كانَت سائدة في القرن الثامنَ عشرَ. وقد أثَّرتْ مثلُ هذه الأفكارِ التي كانَت مُتأثِّرةً بالمدِّ المتُصاعد للقَوميّة في المسألة اليَهوديّة.

وقد وَلَّدَ التَّركيزُ الرُّومانطيقيُّ على الإيمان والتَّقاليد إعجابًا جديدًا بالشَّعب والجنس اليهودي، ولكنَّه كان قائمًا على مفاهيمَ علمانيّة بدلاً من المَفاهيم الدِّينيّة. وتُؤكِّدُ الكاتبةُ على أنَّ الصهيونيّةَ وجدَت الرُّومانطيقيّةَ تعبيرًا لها في أدب القرن الثامنَ عشرَ وكتاباته السِّياسيّة، فلم تَعُد الشَّخصياتُ اليَهوديّة بارزةً فحسب، بل أصبحَت تُعامَلُ بأشدِّ الاحترام، ولم تكنْ هذه الشَّخصياتُ تُقدَّم كأفرادٍ بل كأعضاءٍ في أمّة تَحظى بالشَّفقة أحيانًا بسببِ ما تُقاسيه من وَيلات، وتَنال في الغالبِ الإعجابَ بسبب طاقتِها الهائلة على الاحتمال والبَقاء. وكان اليَهودُ يَلقَونَ دائمًا التَّشجيعَ للعودة إلى كيانِهم القوميِّ الأصليِّ في فلسطين[٢].

---

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصّهيونية غير اليهودية، ص.ص ٦٠ وما بعدها.

٢ - ريجينا الشريف: الصّهيونية غير اليهودية، ص.ص ٦٤ وما بعدها.

الفصل الرّابع: القضية اليهوديّة تلتقي مع المسألة الشَّرقية

بيَّنَت الكاتبةُ في هذا الفصل بشكل مُوثَّقٍ ما جرى من ربطٍ بين القضية اليهود والمسألة الشرقية، حيث تُشير بدايةً إلى ما قام به (نابليون بونابرت - Napoléon Bonaparte) من دعوة اليهود "الإسرائيليين" للمشاركة في حروبه، وصولاً لإقامة وطنٍ لهم في فلسطين، وهو ما حدث قبل "وعد بلفور" بحوالي ١١٨ سنة. حتّى إنَّ (وايزمان - Chaim Azriel Weizmann) وصفَ (نابليون) بأنَّه "أوَّلُ الصهيونيِّينَ الحَديثينَ غيرِ اليَهود". وقد جاءَ خطابُ (نابليون) وبيانُه خلال الحملةِ الفرنسية على مصر عام ١٧٩٩م. ورغم أنَّه لم تتمخَّضْ كثيرٌ من النَّتائج السّياسيّة على تلك الدعوة، فإنَّ جيلَ الصهيونيِّينَ اليهودِ الجديدَ، الذي كانَ آخذًا في الظُّهور على مسرح التاريخ اليَهودي، تبنَّى تلك الأفكارَ وحملَها على عاتقه.. لتَبرُزَ مُجدَّدًا فكرةُ البعثِ القوميِّ اليَهوديِّ من جديد في الثَّقافة الغربية الأوروبية، في أكثر الأوقات ملاءمةً من النّاحية السِّياسية. حيثُ كان الرأيُ العامُّ يُؤيِّدُ منذُ أمدٍ طويل موضوعَ الاستيطان اليهودي في فلسطين، أمَّا على الصَّعيد السِّياسيِّ فقد كانَت قضيَّةُ الاستيطانِ جديدة.

وهنا يَبرُزُ دورُ (بالمرستون - Palmerston)[١] كشخصيّةٍ سياسيّةٍ واقعيّةٍ كانت مُهتمّةً بالمكاسب السِّياسيّةِ التي يمُكنُ أن تَجنيَها بريطانيا من خطّةِ الاستيطانِ اليَهوديِّ في فلسطين. فقد كانَ هذا الرَّجلُ أوّلَ مَنِ اكتشفَ الفكرةَ السِّياسيّةَ في صلبِ الحلمِ الدِّينيِّ البروتستانتيِّ. وهذا ما كان قد قام به وسَعى إليه في كلِّ حركتِه السّياسية. وأمَّا عن تلك المكاسبِ التي كان يَراها، من خلال تَصميمه على تسويةِ المسألة الشَّرقية في تمكين اليَهود من الاستيطان في فلسطين، فهي تتجسَّدُ من خلال مَكسبَين: مكسب مباشر، وهو وجود مجموعة مُواليةٍ لبريطانيا في منطقة ليس لها فيها مَن يُواليها، كما أنَّ أهمِّيّتَها بالنِّسبةِ للمصالح الاستعمارية البريطانية في الخارج كانَت تتزايد. ومكسبٍ غيرِ مباشر، وهو تدفُّق رأس المالِ والعَمالة اليهوديّة التي يَحتاجُها السُّلطانُ العثمانيُّ لدعم نظامِه الاقتصادي المُنهارِ تَقريبًا[٢].

الفَصلُ الخَامس: الطَّريقُ إلى «وعد بلفور»

كانت القضيّةُ الأساسيّةُ التي شغلَت صُنّاعَ القَرار في بريطانيا بالذات، في ذلك الوقت، هي كيفيّةُ تحويلِ حلمِ اليهود في دولةٍ ووطنٍ إلى واقعٍ حيٍّ ومَلموس. ولكنْ بعدَ ترسيخ هذا

١ - وزير خارجية بريطانية الذي عاش ما بين عامي ١٧٨٤-١٨٦٥م.
٢ - انظر: ريجينا الشريف: الصّهيونية غير اليهودية، ص.ص ٧٨-٨٥.

الفكرِ والمبدأ في الواقع السِّـياسيِّ والثّقافيِّ الغربيِّ، كان الأمرُ يَحتاج لإنفاق ماليٍّ كبير، لهذا تمَّ تأسيسُ ما يُسمَّى بـــ "صندوق استكشاف فلسطين"، ليكونَ واحدًا من المؤسَّساتِ والمُنظَّمات الكثيرة التي ازدهرَت في إنجلترا خلال العقود الأخيرة من القرن التاسـعَ عشرَ، والتي كانَت تُقدِّمُ استشاراتِها ومساعداتِها المادية والشَّخصية لليَهود الرّاغبينَ في الاستيطانِ في مستعمراتٍ زراعيّةٍ في فلسطين.

والأمرُ كان يتطلَّـبُ أيضًا -تتابعُ الكاتبةُ- ثلاث أو أربعَ خطوات ضروريّـة لبناءِ قوميّةٍ يهوديّةٍ في فلسـطين هي: شراءُ الأرض من أصحابهـا الحاليِّينَ أولاً، وجَعْلُها ذاتَ قيمةٍ للمُسـتأجرينَ والفلاحينَ عن طريق إنفاق مبلغٍ من المال لتَحسينِ أحوالِها، ثم تأجيرها لمستأجرينَ يهودٍ بشكلٍ دائم وبأجور ثابتة. وثالثةُ الخطواتِ هي توجيهُ رأس المال لا إلى اسـتغلالِ الأرض فحسب، بل لإقامةِ مصانعَ ذاتِ طبيعةٍ وأهميّةٍ قوميّة. ورابعةُ الخطوات هي تَوجيهُ هذه المصانع وغيرِها لجَعلِ البلدِ في وضعٍ مُناسـبٍ للدِّفاعِ العسكريِّ، بحيثُ تتمكَّنُ الأمّةُ من المُحافَظةِ على استقلالها من كلِّ الغُرباءِ عندما يَحينُ الوقتُ للدِّفاع عنها.

وهكذا تعمَّقَت الرُّؤيةُ السِّياسـيةُ الخاصّةُ بوطنِ اليَهـود لدى الإنجليزِ وغالبيّةِ الدُّولِ الغربية، ومع ميلادِ المُنظَّمـةِ الصهيونيّةِ في عام ١٨٩٧م، خلالَ المُؤتمر الصهيونيِّ الأوَّل الذي عُقدَ في "بازل" السّـويسرية، وضعَ اليهودُ أنفسُـهم، للمرّةِ الأولى، مُسـودّةَ البَرنامج السياسيِّ الذي كان أساسًـا للحركة الصهيونية في القرن العشرين، والذي يُؤكِّدُ عـلى أنَّ الصهيونية تُكافِحُ من أجل إنشاء وطنٍ للشَّعبِ اليهوديِّ في فلسطين، يَحميهِ القانون، ويَرى المؤتمرُ أنَّ الوسائلَ التالية تُؤدِّي إلى الغايةِ المَنشودة:

١. تشجيعُ استعمار العمالِ اليهودِ الصِّناعيِّينَ والزِّراعيِّينَ لفلسطين على أُسس مناسبة.
٢. تَنظيمُ وربطُ جميعِ اليهود عن طريق المُؤسَّسـاتِ المحلية أو الدّولية طبقًا لقانون كلِّ دولة.
٣. تعزيزُ وتشجيعُ الإحساس والشُّعور القوميِّ اليهوديّ.
٤. اتِّخاذُ الخطواتِ التّمهيديّةِ للحصولِ عـلى موافقةٍ حكوميّةٍ حين يكون ذلك ضروريًّا للوصول إلى أهداف الصّهيونية[١].

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ٩٥-١٠٣.

لقد كانَ قادةُ الصّهاينة الأوائلُ، وعلى رأسهم (هرتزل)، مُدركينَ أنَّ إنجلترا هي «نقطة أرخميدس التي يَجب تطبيقُ مبدأ الرّافعةِ عندَها». وهو ما أعلنَهُ بشكلٍ مباشر وبكلِّ ثقة في كلمة الافتتاحِ للمُؤتمر الصهيونيِّ الرابع عام ١٩٠٥م، والذي قال فيه: «من هذا المكان ستُحلّقُ الحركةُ الصهيونيّةُ عاليًا. إنجلترا العظيمة، إنجلترا الحُرّة، إنجلترا التي تمدُّ عيونَها إلَى البِحار السَّبعة ستَفهَمُنا".

وهكذا وصلَتِ الأمورُ إلى عهد (بلفور - Balfour)[1]، الذي كان يُؤمِنُ بالمزايا الفريدة للجنس الأنجلوسكسوني، كما كان يَمتلِكُ صهيونيّةً مُتَّقِدةً وقويّةً نابعةً من تصوُّره للتَّمييز العُنصريِّ لليهود، الذي يَعتبر العرقَ والدِّينَ والوطنَ بالنِّسبة لهم أمورًا مُتداخِلةً معًا. فتمَّ إعلانُ وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧م، وتمَّ فيه الاعترافُ بأمة اليَهود التي لها الحقُّ في الإقامة على أرض فلسطين. حيث تمَّ دمجُ هذا الوَعد في الانتدابِ، ووافقَتْ عليه عصبةُ الأُمم[2].

الفَصلُ السّادسُ: الصّهيونيةُ في أميركا

تُشيرُ المؤلِّفةُ إلى أنّه لم يكنْ لدى الحكومة الأميركية، حتّى الحرب العالمية الأولى، أدنى اهتمامٍ بالصهيونية كحركةٍ سياسية، ولكنّها كحركةٍ رُوحيّةٍ كانَت تُشكِّلُ عنصرًا هامًّا في الفِكر الأميركي والحياة السياسية، منذُ الأيّامِ الأولى للاستيطان الأوربيِّ في العالَم الجديد، خلالَ النِّصف الثاني من القرن السّابعَ عشرَ.. حيثُ كان الحَجيجُ يَحملونَ معَهم الثَّقافةَ العِبريّةَ إلى هذا العالَم. وقد عبرّ «ليكس» عن ذلك بقوله: «إنَّ الملاطَ العبريَّ قوّى أُسسَ الدِّيموقراطيّةِ الأمريكية».

وهكذا فقد هيمنَتِ الثقافةُ العِبريّةُ من خلال العَهد القديم على فكرِ وسلوك وحياة الأمريكيِّينَ، حتّى أصبحَت إرثًا وتقليدًا أمريكيًّا بامتياز. وهذا الميلُ الرُّوحيُّ والإرثُ الدِّينيُّ المُتعمِّقُ باتَ لاحقًا سياسةً وخطًّا سياسيًّا لدى النُّخب السياسية الأمريكية، بل وصلَ حدودَ الاعتناق كمَذهبٍ دينيٍّ وسياسيٍّ. وهذا الشّكلُ المُتميِّزُ للتَّفكير الألفيِّ لم يَجعلِ الطَّوائفَ التي تُؤمِنُ بالعِصمة الحرفيّةِ صهيونيةً فحسب، ولكنّهُ أوجدَ زُعَماءَ يُطالبونَ بعَملٍ شعبيٍّ لإعادةِ اليَهودِ إلى فلسطين.

---

١ - رئيس وزراء بريطانيا الأسبق.

٢ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١١٢ وما بعدها.

وتَستعرضُ الكاتبةُ عددًا من الأسماء السِّياسيةِ الأمريكية البارزة، التي اعتنقَتِ الفِكرَ الصهيونيَّ في ممارساتها وسلوكها، وتحرَّكَت على طريق الدَّعوة والسَّعي لإيصال اليَهود إلى فلسطينَ كوَطنٍ نهائيٍّ لهم، مثل: (وليام بلاكستون - William Blackstone)، و(وودر ولسن - Woodrow Wilson)، و(روزفلت - Roosevelt)، و(ترومان - Truman) ... وغيرهم[1].

الفَصل السّابع: الصّهيونية والعُنصريّاتُ الحَديثة

تُؤكِّدُ الكاتبةُ في هذا الفصل على أنَّ الفهمَ الواضحَ لظاهرة الصهيونيّةِ غيرِ اليهوديّة، بمنظورها التّاريخيِّ الكاملِ، تمُكِّنُنا من خلعِ قناعِ أسطورة الصّهيونيّة ورُؤيتِها على حقيقتِها الأساسيّة، وهي أنَّها نتاجُ الفلسفات الأوروبيةِ العنصرية والاستعمارية. إذ لم تكنِ الصهيونيةُ في أساسِها حركةً يهوديّةً مُتميِّزةً، وكانَت تُواجِهُ معارضةَ اليهود المُتديِّنينَ الذين أنكروا محاولةَ إعطاء أبعادٍ جغرافيّةٍ للمَملكة الرُّوحية من جهة، كما كانَت تُواجِهُ من جهة أخرى معارضةً من جانب اليهود الدّاعينَ للحقوق المَدنيّةِ، الذين كانوا يَسعَونَ إلى الخلاص الكاملِ وسياساتِ الهجرةِ المفَتوحة. ولكن معَ رسوخِ الفكرِ والثَّقافة العِبرية واندماجها (بل وتَجذُّرِها) في الثَّقافة الغربية، وتَحوُّلِ هذا الفكرِ التّاريخيِّ القديمِ إلى مبادئ عملٍ سياسيٍّ عُنصريٍّ، تجسَّدَ في الأيديولوجية الصهيونية، باتَ الاستعمارُ الصهيونيُّ -كما تقولُ الكاتبةُ- جزءًا لا يتجزَّأُ من الحركة الاستعماريّةِ الأوروبيّةِ الكُبرى، منذ بدايات القرن الماضي. وهذا يَكشفُ بوضوحٍ عن الارتباط العضويِّ الوَثيقِ بين الصهيونية والعُنصريّة واللاساميّة والنّازية والتَّمييز العنصريِّ[2].

تَعتقدُ الكاتبةُ أنَّ الأفكارَ العنصريّةَ -بما في ذلك الصّهيونية واللاسامية والنازية- لم تأتِ من فراغ، بل كانَتْ مرتبطةً بقوى تاريخيّةٍ مُحدَّدة تَسود في مجتمعٍ يَسعى إلى الشَّرعية، وتطوُّرُ العنصريّةِ بأشكالها المُختلفة كانَ مُتوافقًا مع ظهورٍ وتوسُّع الاستعمارِ الأوروبيِّ القائمِ على استعمار العالَمِ غيرِ الأوروبيِّ. وقد استُغلَّتِ العُنصريّةُ وفلسفتُها الأساسيّةُ لجعل النِّظام الاستعماريِّ شرعيًّا، ولتَقديم الدَّعمِ الأيديولوجيِّ لعملية الاستعمار، «واجب الرَّجل الأبيض» هو أن يُحضِّرَ الأُممَ «المتُأخِّرةَ» غيرَ القادرة على مساعدةِ نفسِها.

---

١ - ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١٢٩-١٥٩.

٢- انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص١٦١.

هذه الفكرةُ الاستعلائيّةُ الفَوقيّةُ في الواقع السِّياسيِّ الغربيِّ -والفكرُ الصهيونيُّ جزءٌ أساسيٌّ منه- يمُكنُ القولُ إنَّها مُتأصِّلةٌ في الثَّقافة الغربية (والثقافةُ العِبريّةُ أصلٌ فيها)، وما فَتِئَت تَنظرُ للآخَرِ المُختلِفِ والمُغايِرِ كمُجرَّدِ كائنٍ وَظيفيٍّ، لا يَنتمي للحضارة الغربية المتُقدِّمة، وبالأساس عاجزٌ عن فَهمِها والالتحاقِ برَكبِها لأنَّه ناقصٌ عقليًّا وفكريًّا.

وتُبيِّنُ المؤلِّفةُ أنَّه مع التوسُّع الاستعماريِّ البريطانيِّ في الشَّرق الأوسط أصبحَ المُواطنونَ العربُ هدفًا مَحتومًا للعنصريّة، بسبب دياناتِهم وثقافتِهم ولَونِهم، وفوقَ ذلكَ كلِّه بسبب مُعارَضتِهم للتَّدخُّل الأجنبي. وكان اليهودُ يَعنون بالنِّسبة لفلسطينَ «التَّقدُّمَ» و«إقامةَ حكومةٍ حديثة»، في حين يَرمزُ العربُ إلى الرُّكودِ والفُجور والحُكمِ المتُعفِّنِ والفَساد والمُجتمعِ الكاذب. وكان الصهيونيُّونَ غيرُ اليهودِ يتَّهمونَ العربَ باستمرار بالرَّجعية، ويُلقونَ مسؤوليّةَ انحطاط فلسطينَ والشَّرقِ الأوسط على كَواهِلِهم. وقد هيَّأتْ هذه النَّظريّةُ العُنصريّةُ المَسرحَ للاستيطان الاستعماريِّ اليَهوديِّ في فلسطين[1].

وتُوثِّقُ الكاتبةُ الرّابطةَ العميقةَ القائمة بين الحركة الصهيونيّة والنّازية، حيثُ كان آباءُ النّازيةِ السِّياسيُّون والأيديولوجيُّون يُشاركونَ الصّهيونيِّينَ فذلكاتِهم. ففِكرة «الجنس المُختار» عند النّازية لم تكنْ تَختلفُ عن فكرة «الجنس المختار» عند الصهيونيّة إلا في هوية هذا الجنس: هل هو الجِنس الآريُّ أو اليهوديُّ؟ ولم يكن الصهيونيُّونَ اليهودُ وغيرُ اليهود يَستشعرونَ أيّةَ كراهية للنّازية وسياساتِها وممارساتها اللاسامِيّة.

وقد طلبَ (وايزمان) ذاتَ مرّةٍ من (ريتشارد ماينرتزهاجن - Richard Meinertzhagen) أنْ يُوضِّحَ الصّهيونيةَ ومَضامينَها لهتلر، الذي كان يَعتقدُ أنَّه "غيرُ معادٍ للصهيونية".. وأمّا سياسةُ التَّمييز العنصريِّ فقد كانَت سمةً لازمةً لآباء الصهيونية الأوائل، فقد كان التَّشابُه بين الصهيونية وسياسة التَّمييز العنصريِّ في جنوب إفريقيا يَكمُنُ في احتكام كلٍّ منهما لنفوذٍ "حضاريٍّ" نابعٍ من المبادئ التَّوراتية. والملاحَظ هنا أنَّ السُّكان البيضَ في جنوب أفريقيا تربَّوا ونشؤوا على التَّعاليم التَّوراتية والعهد القديم.

وتُشير الكاتبةُ إلى أنَّ الأُسس النَّظرية المُشتركة للصهيونية والتَّمييزِ العنصريِّ تُوِّجَت تتويجًا بالعلاقة الخاصّةِ التي قامَت فيما بعدُ بين حكومة إسرائيل والنِّظامِ العنصريِّ في جنوب إفريقيا،

---

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص١٦٥.

واستمرَّت الرَّوابطُ الشّاملةُ بينَهما منذ عام ١٩٤٨م على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية، مُتحدِّيةً القوانينَ الدّولية وإداناتِ التَّمييزِ العنصريِّ.[١]

الفَصلُ الثّامن: فلسطين اليوم، الثَّقافة السّياسية والسّياسة الخارجية

إنَّ محاولةَ التّعمُّق -حتّى لو كانَ سطحيًّا- في فهمِ الصّهيونيّة غيرِ اليهوديّة، ووَعي تاريخِها وتحالفاتِها وعلاقاتِها وآليّاتِ عملِها، سيُبيِّنُ لنا بشكلٍ كاملِ الوضوحِ عمقَ وتجذُّرَ هذا الإسناد والتأييد الغربيِّ للدَّولة الصّهيونية في فلسطين، التي كانوا يَنظرونَ إليها على أساس أنَّها أرضُ الميعاد (أرض اللَّبَنِ والعَسل). وهذا يَعني أنَّ الصهيونيّةَ العالميّةَ، التي نشأتْ في أحْضانِ الغَرب والثَّقافةِ السّياسيةِ الاستعماريةِ الغربيّةِ، كانَت عاجزةً بمُفردها عن تَحقيق حُلم إقامةِ الدَّولةِ المَنشودة في فلسطين، لولا ما تَلقَّتْه من دَعمٍ واسعٍ، سياسيٍّ واقتصاديٍّ وعسكريٍّ، من دولِ الغربِ وعلى رأسِها بريطانيا وأمريكا.

وقد استطاعت الحَركةُ الصهيونيّةُ -وهذا ما تؤكّده الكاتبةُ- أنْ تضمَّ إلى صفوفها مُؤيِّدينَ من بين غيرِ اليهود في العالم الغربيِّ، قبلَ أنْ تجتذبَ تأييدًا يهوديًّا واسعًا نتيجةً للحَرب العالمية الثانية؛ خاصّةً أنَّ الانسجامَ السياسيَّ بين الصهيونية والثَّقافة الغربية أقدَمُ عهدًا من ذلك القائم بين الصهيونية وأنصارِها الطَّبيعيِّينَ، وهم اليهوديّة ويهودُ العالَم.

وتُشيرُ الكاتبةُ هنا إلى أنَّ الصهيونيةَ، في نظرِ غالبيّةِ غيرِ اليهودِ في الغربِ، ليسَت حركةً عُنصريّةً، ولكنَّها قوّةٌ مَعنويّةٌ، كانَ يُنظَرُ إليها أولاً كعَقيدة دينيةٍ ذاتِ جذور عميقة في تاريخ الحضارة الغربية. وقد قامَ غيرُ اليَهود بنَقلِ ونَشر أفكارِها الرَّئيسة ومبادئِها الأساسيّة تحتَ أقنعة دينيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة أو استراتيجيّة مُتنوِّعة. والصّهيونيّةُ غيرُ اليهوديّة لدى تَطبيقها على الصِّراع الفلسطينيِّ الآنَ لا تَزال عنصرًا رئيسًا في عمليّةِ صُنعِ قرارِ السِّياسةِ الخارجيّةِ للأُمم الغربيّةِ، وخاصّةً الولايات المتحدة وأوروبا الغربية[٢].

وتُبيِّنُ لنا الكاتبةُ أنَّ فكرةَ إعادة اليهود إلى فلسطين -كأمّة- هي فكرةٌ شائعةٌ ورائجةٌ في الأوساط الغربيةِ النُّخبويّة والمُجتمعية خلال القرون الأربعة للتّاريخِ الغربيِّ الحديث. وكانَت دائمة

١ - راجع: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١٦٧-١٧٣.

٢ - راجع: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص١٧٧.

الحضور وماثلةً باستمرار في الثّقافة الغربيـة الحديثة، في المجال المَعنويِّ الرُّوحيِّ أولاً، ومن ثَمَّ في المجال السياسيِّ الدُّنيويِّ بعدَ ذلك.

فقد كانَت التَّوراةُ في المعتقدات الغربيّةِ -الأميركية بالذّات- مَصدرَ الأمان، وقوّةً مُتماسكةً في الطُّموحِ القوميّ، فلُغةُ التَّوراةِ (العهد القديم) وخيالاتُها وتَوجيهاتُها الأخلاقيّةُ وكفاحُها البشريُّ تُشكِّلُ جزءًا مُهمًّا من الشَّخصيّةِ الأميركيّة، والأنبياءُ والوثنيُّونَ والمُلوكُ والعامّةُ الذينَ عاشوا في إسرائيلَ القَديمة، منذُ قرون عديـدة، نَهضوا للقِيام بأدوارٍ مُعاصرةٍ في التّاريخ الأميركيِّ في أيامِه المُشرقةِ والعَصبيةِ على حدٍّ سواء.

وقد وصلَت حدودُ دَعمِ العَقيدةِ الصّهيونيّةِ العنصريّةِ بكلِّ متعلّقاتِها إلى المسـتوى السياسيِّ الرّسميّ، حيثُ إنَّ كلَّ رُؤسـاءِ الولاياتِ المتَّحدة يُؤمنونَ بالعلاقة الخاصّة العَميقة والفَريدة مع إسرائيل، كدولة ودين وأُمّة، حتّى وصلَت حالةَ التّماثُلِ الشَّخصيِّ الذّاتيّ. بل باتَت العلاقةُ قائمةً على الاندماجِ المَصلَحيِّ الكاملِ، بحيثُ تَبدو إسرائيلُ أصلَ ولُبَّ الغربِ، وليسَـت مُجرَّدَ جُزءٍ من مُحيطـه وقِشرتِه. وهذا الدَّعمُ والتأييـدُ الغربيُّ (الأمريكي) لإسرائيل هـو الثابتُ الجَوهريُّ والرَّئيسيُّ الباقي في سياساتِ هذا الغَربِ -خاصّةً الأميركي- تُجاهَ كلِّ مَلفّاتِ ومَشاريعِ ومُتغيِّراتِ السِّياسةِ الدّوليّة[1].

خاتمة

مـع نهايـةِ قراءتنا لهـذا الكتابِ نُسـجِّلُ للكاتبـة (ريجينا الشريفـة) مَوضوعيّتَهـا وعِلميّتَها ومَوسوعيّتَها في تَناوُل ومعالجة أهمِّ قضيّة فكريّة وسياسيّة وتاريخيّة في مَنطقتنا العربية، التبسَتْ عـلى أذهان كثيرينَ غربًا وشرقًـا، حيثُ قدَّمَتْ عرضًا فكريًّا وتاريخيًّـا مُوثَّقًا لظاهرة الصهيونية، وأشارَت إلى اختلافِها عن مفهوم اليَهوديّة.

وخلال ذلك كان حرصُ المؤلِّفةِ كبيراً جدًّا لجهة التَّوسُّـع في الرُّجوعِ إلى المصادر واسـتقاءِ المَعلومات (الوافرة التي أوردَتْها) من منابعها الأساسيّةِ الأصليّة، وهذا ما لاحظناهُ، فقد كان كتابُها هذا مليئًا بالوَثائق والمُستندات ذاتِ الصِّلة بمَوضوع بحثِها.

وتأتي أهميّةُ إعادةِ تَسليط الضَّوءِ على هذا الكتاب، في وقتنا الحاضر، لكشفِ حقيقة الصّهيونيّةِ

١ - راجع: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١٨١ وما بعدها.

العُنصريّة، ونحنُ نَشــهَدُ إحدى أهمِّ النَّتائجِ الكارثيّة لهذا الدَّعمِ والإسنادِ والاحتضانِ التّاريخيِّ الغربيِّ -والأمريكيِّ منه بالذّات- للمَشروعِ الصهيونيِّ ودولتِه المَزعومةِ في منطقتِنا، التي تمُارسُ فيها دولةُ الكيانِ العِبريِّ قتلَها وتَشريدَها للشَّــعبَينِ الفلسطينيِّ واللُّبنانيِّ، وتَستوحشُ في إرهابها الدَّمويِّ ضدَّ كلِّ شــعوبِ المنطقة، في ظلِّ الحمايةِ الغربيّةِ والأمريكيّةِ الكاملة، سياســةً ودَعمًا وتسليحًا عسكريًّا.